الصحابة

جعفر بن أبي طالب

الطيار أبو المساكين

بقلم
لينا كيلاني

دار المعارف

obeikandl.com

تصميم الغلاف: شريفة أبو سيف

رسوم داخلية: منال بدران

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٣٠٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6766-X

٧/٢٠٠٤/٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

لم يَكَد يذيعُ صيتُ الإسلاَم وينتشرُ، حتى ذاعَ صيتُ جعفر بن أبى طالب ، وانتشـــرَ عطرُ سِيرته بينَ المسلمينَ الأوَائل ، وَفِى قريْشٍ وأهلِ مكَّة .

ولاَ عجبَ فِى ذلكَ، فأبُو طالب هُو الذِى سَـــاند الرسولَ ﷺ ودعَّمه ضدَّ المشـــركينَ، وبســـطَ عَليْه حِمَايته بعدَ وفاةِ جَدِّه عبد المطلب رغمَ أَنَّ أَبَا طالبٍ لم يُسْـــلِم فِى تلكَ الفترةِ، وظلَّ الوسيطُ بينَ قريشٍ وبينَ ابن أخيه ﷺ بن عبد الله، حَتَّى أنه بعدَ تهديـــدَات قريش وضُغُوطها قَال لابن أخيه: إنَّ قريشًـــا مُسْتعدة لأن تهبَهُ المالَ والســـيادةَ فيمَا لو تراجعَ عَنْ دَعْوَته، ولمَّا أَجَابه الرسولُ ﷺ قائلاً: «يَا عمى والله لَوْ وَضَعُوا الشمسَ فِى يمينى، والقمرَ فى يَسَارى عَلى أنْ أرجعَ عَنْ هذَا الأَمرِ مَا رجَعْتُ عَنه أبدًا». فَدَمَعَت عينا أبى طالب.

وَمَـــا كانَ لهذَا الرجلِ العظيمِ أنْ يمنعَ أبنَاءَه الصِّغارَ منْ أَنْ يَلْتحقُوا بالإســـلام وعَلى رَأْسهم علِى بن أبى طالب وهو فِى الرابعة عشرة، ومنْ ثم جعفر وغيرهمَا.

إذَنْ فجعفر قد تشـــرَّبَ مبادئَ الإســـلاَمِ منذُ بُزُوغِ الدَّعوةِ ، وعَاش فِى ظلِّ النبى فِى أوقاتِ الشـــدّة ، وتنسَّمَ عطرَ الإيمانِ وهو لا يزالُ صغيرًا فتغَلْغَلَ الإسلامُ فِى شَرَاييِنه ، وكلَّمَا كانت

الدعوةُ تحققُ انتصاراتِهَا وتكْبر، كانَ جعفر يكبُرُ معَهَا.. يَكْبر فِى العمرِ، كَمَا يكْبر بالإحساسِ بعظمةِ الإسْلاَم وَتَعَاليمه ، فِى رفعِ الظُّلْمِ عَنِ الفقراءِ والمستضعفينَ والعبيدَ لاسيّمَا وأَنَّ والدَه أبا طالبٍ – رغمَ مَكَانته كسيِّدٍ لقريشٍ، ويقوم بخدمَةِ الكَعبةِ المشـرَّفَةِ ، كانَ منْ فقرَاء آل عبد المطلب ، حتى أنه لَمَّا ضمَّ إليه ابن أخيه ليكفلَهُ ، شَـعَرَ محمدٌ ﷺ بأنه أصبح عبئًا عَلى هذَا العمّ فَآثرَ أنْ يعملَ – ولو برَعْى الأغنامِ ليعولَ نفسَه.

مِـنْ ذلكَ البيتِ الكريمِ الذِى يفيـضُ بالقيمِ النبيلةِ العاليةِ، خرجَ جَعفر وقد نشـأَ على مَكارمِ الأخـلاَق، تلكَ الأخلاقِ السَّـاميةِ التِى كانَ يتصفُ بِهَا أبو طالـبٍ، والتِى كانَ يتفوَّق عليهَا محمدٌ، ويتمثَّلُهَـا علِى ، ذلكَ الأخ الأكبر لجعفر الذِى ضربَ أروع الأمثالِ فِى التضحيةِ والفدَاءِ والإيمانِ؛ عندمَا ألقى بنفسِـهِ فِى فراشِ رسـولِ الله ﷺ ليُضلِّلَ المشركينَ فيظنُّوا أنه مُحَمَّدٌ وينشـغلُوا به، بينمَا كانَ ﷺ يأخذُ طَرِيقَه مَعَ صَاحبه أبِـى بكرِ الصِّديق نحـو غَارِ ثورٍ هَرَبًا منْ ظُلمِ المشـركينَ وَتربُّصهم برِسَالته.

كانَ جعفر الصغير يسـمعُ عن تلـكَ الأحداثِ العظيمةِ منْ بدء تاريخ الدَّعوة، ويسـمعُ عَنْ مواقفِ أبيه وأخيه المؤيدة لَهَا

فَيَتأثر بها بَالغَ الأَثر.. أمَّا ﷺ فهو ذلكَ الرَّجلُ الذِى لا مثيلَ له فِى رفعةِ الأَخْـلاق، ونُبْلِ القيم فكيفَ لا يكونُ مثلاً أعلى لجعفر؟ وفوقَ كُل ذلكَ فهو رسـولٌ ونبـىٌّ منْ عندِ اللهِ يحملُ رسالةَ الإسلام، دِين العَدَالةِ وَالحقِّ.

وتشـعُّ عينَا جعفر ببريقٍ غيرِ عادىكلمَا سـمعَ عَنْ ﷺ فَيتَمَثَّله أَمَامه، وَيَسْـتذكر خِصَاله ومواقِفَهُ ومَا يُطلق عَليه منْ لقبِ الصَّادقِ الأمينِ؛ فيقْشَـعر جسـمُهُ منْ ذلكَ اللَّقبِ العظيمِ الذِى لم يَفُزْ به أحدٌ كَمَا فازَ به ﷺ فما تفوّق عَليه أَىُّ امرئٍ مهمَا بلغَ منْ رفعةِ الخُلُق.. ويتمنَّى جعفر فِى قرَارةِ نفْسِـه أن يكونَ شبيهًا بمحمدٍ ﷺ بن عبد الله قَريبة ونسيبة ، خَاصّة وأنه يُشبهه فِى الشكلِ والملامحِ ، بَلْ هو الأقربُ إليه والأكثرُ شَبَهًا بِـه.. فلماذَا لا يقتدِى بصِفَاتِهِ أيضًا، ليصبح الأشْـبَه به خَلْقًا وَخُلُقًا؟.. وإذَا كانَ أىُّ أحدٍ يسـمعُ بمحمدٍ ﷺ ويَأْتِى – مهمَا بَعُدتِ المسـافةُ – ليسـتمعَ إلى دَعْوَته فيصبح مُؤمنًا، فكيفَ وجعفر يختزنُ فِى ذَاكرته كلَّ هذهِ المعْرِفةِ بمحمدٍ ﷺ وهو ابنُ عَمه الذِى رعـاهُ أبوه أبو طالبٍ وأصبحت مَآثره وأفضالُه منْ رواسِخ آل عبد المطلب وآل هاشم بَلْ وقريش كلهَا؟

وفعلاً برزَ جعفر منْ بينِ صَحْبِهِ نقيًّا مشـعًّا، كجوهرةٍ تُزينه

أخلاقُ رسولِ الله ﷺ التِى تمثَّلَها، حتى أَخذت تنبعُ منه أَصِيلةً صَادقةً فِى الكرم والبذْلِ والعَطَاءِ والتواضُعِ والجُودِ. فكانَ كَرِيم النفسِ كَرِيم اليدِ يساعدُ المساكينَ والضُّعَفَاء، وَيَحنو عَليهم ويرعَاهم، فلا يبخلُ عَلى أحدٍ مِنهم بوَقْتِه أو جُهدِه أو مَاله مهمَا كانَ فِى عُسْر.. وأخذَ يكْثر منَ العطاءِ حتى لَقَّبه الرسولُ ﷺ فيمَا بَعْد بأَبِى المسَاكين.. فأينمَا وُجِدَ مسكينٌ كانَ هناكَ جعفر يبسطُ ذِرَاعيْه بالبرِّ والإحسَان .

وَلَمْ يستغرقْ بحثُهُ عَنِ الحقِّ وقتًا طويلاً، بلْ كانَ من أَوَائل مَنْ أقبلُوا على الرسولِ ﷺ مؤمنينَ طَائِعِين.. فجلسَ معَ زَوْجَته الصَّالحةِ أسماءُ بنت عُمَيْس ، خاشعينَ مُطمئنينَ وهمَا ينطقانِ بشهادةِ أن لا إله إلاَّ الله وأَنَّ محمدًا رسولُ الله.

كانَ جعفر يعرفُ ويدركُ جيدًا، خُطُورةَ مَا يقدمُ عَليه مِنْ أمرِ إسْلاَمه معَ زَوْجته فِى بيئةٍ مَا تزالُ تُصِرُّ على الكفرِ والشِّرْك، وتُحَاربُ كلَّ مَنْ ينطقُ بالشَّهَادتين، ولكنْ صِدق إِيمَانه كانَ كفيلاً بمواجهةِ المشركينَ بكلِّ شجاعةٍ وإقدامٍ .

وَعَانى جعفر مَعَ زَوْجته ((أسماء)). منْ ، ظُلْم المشركينَ وبَطْشِهم، وَتعرَّضَا للأذَى، ولكنهمَا صبرَا وظَلاَّ عَلى دينهمَا بل إنَّ مَا نَالهمَا كانَ سببًا فِى تعميقِ إيمانهمَا وإصرارهمَا على التمسُّكِ بدينِ الله، بَلْ وأكثر منْ ذلكَ فِى الدفاعِ عنه والدعوةِ له، حتَّى كانَ أَمْرُ الرسولِ ﷺ للمسْلمينَ بالهجرةِ إلى الحبشةِ فهاجَرَا معَ مَنْ هَاجَر.

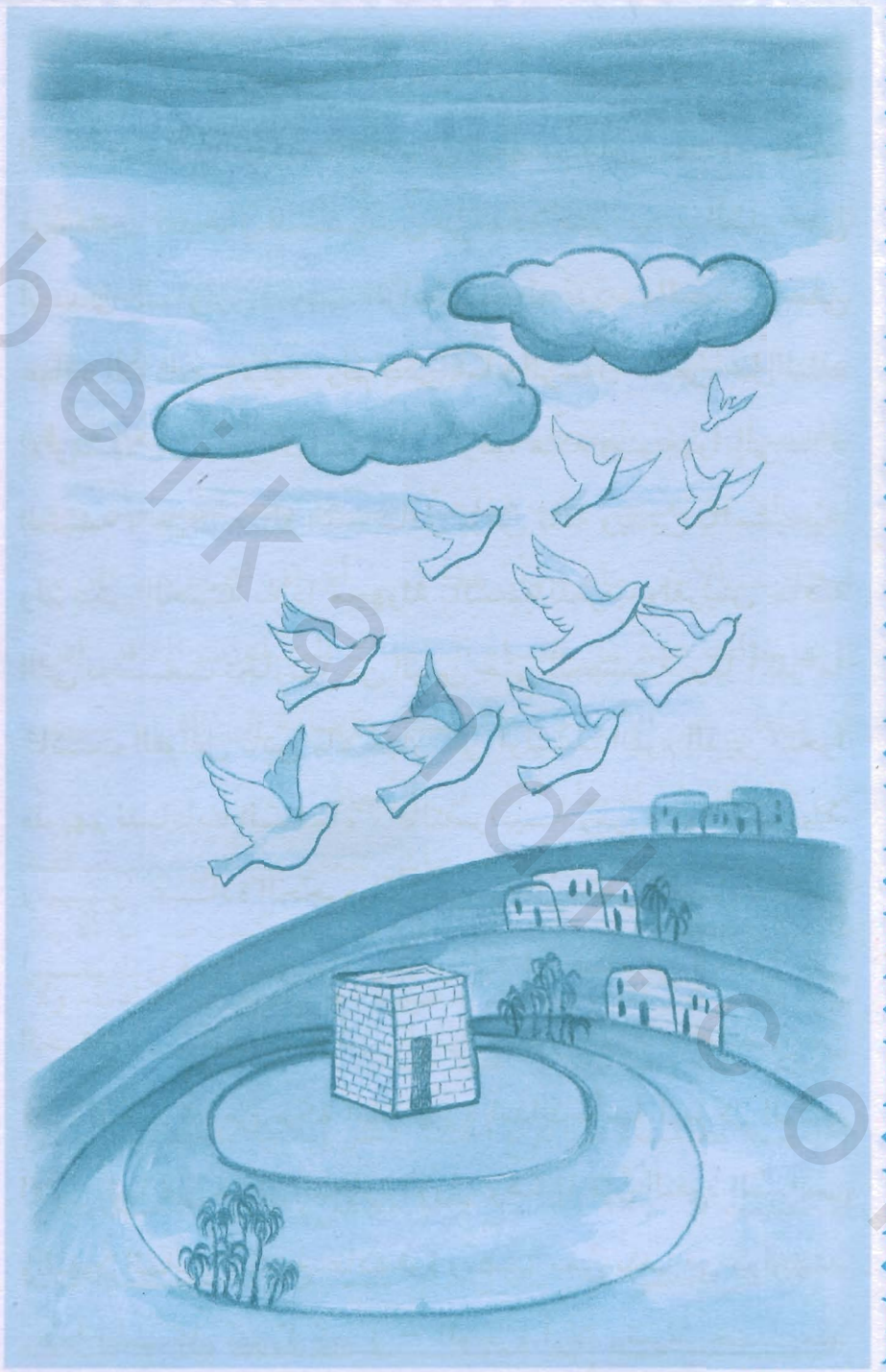

لم تكن أرضُ الحبشةِ أكْثرَ منْ مَلْجأٍ وملاَذٍ لهؤلاَءِ المسلمينَ الذينَ قدمُوا إليهَا حِفاظًا عَلى دِينهم وَأرْوَاحهم منْ بطْشِ قُرَيش.. لقد نالَ المسلمينَ فِى مكةَ كثيرٌ منَ الظلمِ عَلى أيدِى المناوئينَ لمحمدٍ الرَّافضينَ لدعْوَته، والمصِرِّينَ عَلى عبادةِ الأوثانِ والآلهة، وَلَمْ يكنْ أمامَ الرسولِ ﷺ منْ حلٍّ لتلك الأزمةِ إلاَّ أَنْ يأمرَ أتباعَهُ بأنْ يُفَارقوا مكَّةَ وَيتوجَّهوا إلى بلادِ الحبشةِ ، حيثُ هناكَ مَلِكٌ عَادِلٌ يُؤْمنُ باللهِ وَيَدينُ بالمسيحيّة، ولم تكن الحبشةُ بلادًا مجهولةً بالنسبةِ للعربِ ولقريشٍ خَاصَّة التِى توسَّعت تجارتُهَا منَ اليمنِ حَتَّى الحبشَة. ومَا أَكْثر ما كانتِ القوافلُ تأتِى بالأَخبارِ عَنْ أولئكَ القومِ الذين فتحوا قلُوبَهُم لديانَاتِ السَّمَاء ، كالنصرانيةِ وَمِنْ قبلهَا اليهودية، ونبذُوا عبادةَ الحجرِ والوَثَن، ولعلَّ بعضَ العربِ الذينَ استوْطَنوا فِى اليمنِ ، لم يكُونوا ليلاَقُوا عَنَاءً فِى الوصولِ إلى الحبشةِ ، ويمكنُ أيضًا أنْ يكُونُوا جُسُورًا لهؤلاءِ القادمينَ منْ قلبِ الجزيرةِ وَمِنْ مكةَ الشهيرةِ آنذاكَ بأنهَا المرْكَز الوثنِى الأول كَما هِى مَرْكز التجارَة الأول. وهكذَا فإنَّ النفوذَ السِّياسِى والنفوذَ المالِى يستتبعُ عادةً قوةً وبطشًا بمنْ يقفُ فِى مُوَاجهته، وهذَا يشكلُ مُبررًا كبيرًا – للهِجْرَةِ أولاً وقبولاً حسنًا عندَ

مَنْ يَلْجَئُونَ إليهم ثانيًا.

وَلنا أَنْ نتصورَ تلكَ الرحلةِ الشـــاقةِ بينَ الصحارى وكُثبان الرمالِ وشِـــعَاب الجبالِ ، ومَا فِى كلِّ ذلكَ منْ أَهوَالٍ ومخَاطرَ، يتحملهَـــا حِفنةٌ منَ المؤمنينَ الصَّادقينَ فِى إيمَانِهم، الصابرينَ عَلى الشدائدِ – ليسَ وصُولاً إلى هدفٍ – بلْ هُروبًا منْ بطشِ وطُغيـــانٍ.. ليسَ لهم معيـــنٌ إلاَّ اللهُ ربُّ العالمينَ، وليسَ لَديهم أمانٌ إلاَّ مَا يُعينهم عَليه جَلَدُهُم وصبرهُم وتعاطُفُهم، وأنْ يعينَ أحدُهُـــم الآخرَ خاصَّةً وأَنَّ هذَا مِـــنْ أَهْدافِ الهِجْرة. وكَانَ مِنَ المهاجراتِ عددٌ منَ النساءِ المؤمناتِ المسلماتِ اللاَّئى آثرنَ أنْ يُخففنَ عن الأزواجِ محنةَ السَّفرِ ، إضافةً إلى الفرارِ بِدِينهنَّ منْ ظلمِ قريشٍ للنساءِ أَكْثر منَ الرِّجَال.

فِـــى تلكَ الأَرضِ البعيدةِ ، عاشَ جعفر بنُ أبى طَالبٍ وَقلبه مَا يزالُ مُعَلقًا حيثُ الرسُولُ ﷺ فِى مكَّة.. فكيفَ تحرمُهُ الأيامُ مِنْ رفقةِ رسولِ الله ﷺ فلا تراهُ عينَاهُ ولا تسمعُ صوتَهُ أُذُنَاه ولا يرتجفُ قلبُهُ رهبةً وفرحًا عِنْدَ لُقياه!..

إنهـــا مُعَانـــاةٌ منْ نوعٍ آخَـــر أكثر إيلاَمًا بالنســـبةِ له منَ الاضطهادِ فِى مكَّةَ ، أو مِنْ فراقِ الأهلِ والدارِ والأصْحَاب.

ولكـــنَّ جعفرًا كانَ يتفوقُ عَلى نفسِـــه دَوْمًا مُسْـــتمدًّا قوتَهُ وطَاقَتَـــهُ منْ عمقِ إيمَانِه وتسْـــليمِهِ بقضاءِ اللهِ وَقدرِه، فإذَا هو

يتقبَّلُ حياتَهُ الجديدةَ بنفسٍ رَاضيةٍ ، ويعتبرهَا جزءًا من جهَادِه فِى سبيلِ الدَّعْوة.. ولعلَّ بدايةَ جهادِهِ هذَا، كانَ فِى تلكَ المواجهةِ السَّاخنةِ الَّتِى تمتْ بينَ جَمْعِ مُسْلمِى الهجرةِ فِى الحبشةِ ومَبْعوثِى قريشٍ ، عبد الله بن أبِى ربيعة و عمرو بنُ العَاص ومَا كانَا قدْ أَسْلما بعد وهما يحاولانِ إقناعَ النجاشِي مَلك الحبشةِ بإعَادةِ المسلمينَ إلى مكةَ وطَرْدهم منْ بلادِه .

وها همَا مبعوثَا قريشٍ يحملانِ أَنْفَسَ الهدايَا وأغلاهَا إلى النَّجَاشِى ورجَالِ الكنيسةِ، فِى مُحَاولةٍ للتودُّدِ والتقربِ عَسى أَنْ يستطيعَا العودةَ بمنْ هَاجروا لتتمكنَ قريشٌ مِنْهُم.

وانتشرَ الخيرُ بينَ صفوفِ المسلمينَ المهاجرينَ ، فتوجَّسُوا شرًّا مِنْ مَكيدةٍ جَدِيدةٍ تقومُ بهَا قُرَيش، ومَا لبثُوا أنْ تجمَّعُوا ليتداوَلُوا فِى الأَمْرِ، وليتهيَّؤُوا لأَيَّةِ مُفَاجأةٍ قد يتعرَّضُونَ لهَا. فمَا كانَ مِنْ جعفر إلاَّ أَنْ بادرَ بتهدئةِ المسلمينَ وطَمْأنتهم بِأَنَّ لديْهِ مِنَ الحُجَّةِ القويَّةِ مَا يجعَلُهُ يتصدَّى لأَيَّةِ مواجهةٍ قَدْ يضطرونَ إليهَا.

وانسحبَ جعفر وهو يفكرُ عَميقًا فيمَا سَيتعرضُونَ له، ويضعُ كلَّ الاحتمالاتِ، ويبحثُ عنِ الحجةِ المقنعةِ التِى يدافعُ بهَا عَنِ المسلمينَ.

فِـــى تلكَ الأثناءِ كانَ مبعوثًا قريـــشٍ يوزعَانِ الهدايَا وهما يُوغـــرَان صدورَ رجـــالِ الكنيســـةِ ضِد المســـلمينَ وكأنهمَا يُوَجهانهم نحوَ إقناعِ مَليكهم بمَا أرَادَا.

واستبشـــرَ المبعُوثانِ عندمَا وافقَ النَّجَاشي عَلى استقبالهمَا وحدَّدَ موعَد اللِّقَاء.

تجمعَ المســـلمونَ مرةً ثانيةً وهم يتشـــاورونَ فيما يُمْكنهم عَمَله، ومَن الذِى سَـــيمثلهُمُ فيتحدَّث باسْـــمِهم أمامَ النجاشي، وبـــدونِ تردُّد وَافق الجميعُ عَلى أَنْ يقـــومَ جَعْفَرُ بهذِه المهمةِ، فهو يتمتعُ بالذكاءِ والفطنةِ وسرعةِ البديهةِ إضافةً إلى الحكمةِ والإيمـــانِ العَمِيق، وصَدْرهُ عامرٌ بكلمَاتِ الله، وَذَاكرته تختزنُ كُلَّ مَا حَفِظَهُ منَ القرآنِ الكَرِيم .

وهكَذا انضمَّ المسلمونَ بَعْضهم إلى بعضٍ ، بعدَ أنْ توجَّهوا لله وصَلُّوا واســـتعَادُوا مَا حفظوهُ فِى صُدُورهم منَ القرآنِ الكريم، كلٌّ منهم يذكرُ الآخرَ بتلكَ السورِ المكِّيَّة المعجزةِ التِى فَجرت فِى أقْسى القلوبِ ينابيعَ الإيمانِ ، دَاعينَ إلى اللهِ أنْ يُوَفقهم فِى دِفَاعِهم عنْ دِينهم أولاً – وَفِى أنْ يفتحَ القلوبَ القاســـيةَ عَلى غيثِ الإيمَان.

وجاءَ يومُ المواجهةِ ، فاسْتعَدّ المسلمونَ.. أدُّوا صَلاتهم بكلِّ

خُشـــوعٍ، وَلبسُـــوا أفضلَ مَا عندهم منْ ثيابٍ.. وتوجَّهوا بكلِّ وقارٍ وهدوءٍ إلى قصرِ النَّجاشـــيِّ. وهناكَ جلسَ النجاشيُّ عَلى كُرسيِ مُلكه بينمَا المســـلمونَ قبَالته، وبينهم وقفَ المبعُوثانِ وهمَا يُوَجهانِ مُختلفَ التُّهم، ويدينانِ هجرةَ المســـلمينَ بحجةِ أنهـــم ليسُـــوا أكْثر منْ مُتمردينَ عَلى قَوْمِهِـــمْ وَمَا يدينُ به آباؤُهُم وأجدَادُهم. وَلَبِثُوا عَلى هَذا الحالِ والمسلمونَ صَامتونَ يستمعونَ إليهمَا إلى أن التفتَ نحوهُم النجاشيُّ وقَال:

«مَا هذَا الذِى فَارقْتُم فيه قومَكُم واستغْنيتُمْ بِهِ عَنْ دِيننَا؟»

عندَ ذلكَ نهضَ جعفر منْ مَكَانه، وتقدَّمَ مِنَ النجاشـــيِ بكلِّ ثباتٍ وثقةٍ بالنفسِ، ووقفَ باحترامٍ وَبَدَأَ يتحدثُ بصوتٍ عميقٍ عنِ القرارِ ، لا يشُـــوبُه الانفعَالُ ، وَلاَ تَسْتَفِزُّهُ نظراتُ الغضبِ التِى تنغَرِسُ فِى وجُوهِ المسْلمينَ.

ثَبَّـــتَ جَعفر نَظرَهُ نحوَ النجاشـــيِ ، وكأَنَّهُ لا يشـــعُرُ بمنْ يحيطـــونَ بِه وقَالَ: «يَـــا أيهَا المَلِكُ.. كُنَّا قومًـــا أَهْلَ جَاهليَّةٍ نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونَأْتِى الفواحِشَ، ونقطعُ الأرحَامَ، ونُسِـــيءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ مِنَّـــا الضعيفَ ، حتى بعَثَ اللهُ إلينَا رسولاً منَّا، نعرفُ نَسَبَه، وصِدقَهُ، وأَمَانتَهُ، وعَفَافَهُ، فدعانَا إلـــى اللهِ لنوحِّدَه، ونعبدَه، ونخلعَ ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤُنَا منَ

الحجـارةِ والأوثَانِ ، وأمرنَا بصدْقِ الحديـثِ، وأدَاءِ الأمَانة، وصلةِ الرحِم، وحسـنِ الجـوارِ، والكفِّ عَنِ المحَارِمِ وَسَـفْكِ الدمَـاء، ونهانَا عنِ الفواحِشِ، وقـولِ الزُّورِ، وأكل مالِ اليتيم، وقذفِ المحصنـاتِ، فصدَّقْناه وآمنَّا به، واتبعْنَاه عَلى مَا أمَرَه به رَبُّه، فعبدنَا اللهَ وَحْده وَلَمْ نشـرك بِهِ شيئاً، وحرّمنَا مَا حرّم علينَا، وأحللنَا مَا أحلَّ لنَا، فَعَدَا علينَا قومُنَا، فعذَّبُونَا وفتنونَا عـن ديننَا، ليردّونَا إلى عبـادةِ الأوثَان وإلى ما كنَّا عَليه منَ الخبائِثِ.. فلمَّا قهرونَا، وظلمونَا، وضيَّقُوا عليْنَا، وحَالوا بيننَا وبيـنَ دِينِنَا، خرجْنَا إلى بلادك ، ورغبنَا فِى جِوَارك، ورجوْنَا أَلاَّ نُظْلَمَ عِنْدَك».

أطرقَ الملكُ برأسـهِ بعدمَا أنصتَ باهتمامٍ لكلِّ كلمَةٍ نطقَ بهَا جعفر.. وسـادَ الصمتُ. نظرَ المسلمونَ بَعْضُهم إلى بعضٍ بترقُّـبٍ وقلُـوبٍ خَافِقة.. ترى ما هو ردُّ الفعـلِ عَلى ما قَاله جعفر.. ولماذَا يصمتُ الملكُ وبالتَّالي يُسْتشاروه وأعوَانُه؟!..

وفجأةً التفتَ النجاشِى إلى جعفر وسَأل:

«هلْ معَكَ ممَّا أُنزِلَ عَلى رَسُولكم شيءٌ؟»

أَجَاب جعفر:

أجَلْ أيُّهَا الملكُ.

فَقَالَ النجاشي:

- فاقرأْهُ عليَّ إذَنْ.

وقفَ جعفر بخشُوعٍ مُطرِقًا برأْسِه وقالَ بصوتٍ عَذْب:

- «بسم الله الرحمن الرحيم»..

وأخذَ يتْلُو آياتٍ منْ سورة مريم، والمسلمونَ جميعُهُم يُنْصتونَ بمهَابةٍ وجَلال إلى ذلِكَ الأدَاء المميز الذِى ينبعُ من قلبِ جعفر بكلِّ الصِّدق والإيمانِ، ومَا إنْ وصلَ جعفر إلى قوله «صدق الله العظيم»، ورفعَ رأْسَه نحوَ النجاشي حَتَّى رَأى الدموعَ تنهمرُ بغزارةٍ منْ عينيْه ، وهو ينظرُ إليه نظراتٍ مِلْؤُهَا العَاطفة والحنَان، ومَا لبثَ أن التفتَ إلى مَبْعوثي قريشٍ، وقَالَ:

«إن هَذَا، والذِى جَاء به عيسَى، ليَخرج منْ مِشكَاةٍ وَاحِدَة. انطلقَا فَلاَ واللهِ لا أُسْلِمُهُمْ إليكما».

وما أن سمعَ المسلمونَ تلكَ الكلماتِ حَتَّى انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُم، وَأخذ يُعَانق بعضُهُم بعضًا فَرِحًا بفَوْزِهم عَلى مَنْ عَادَاهم.

انصرفَ المبعُوثَانِ خَائبيْنِ، وقلبهمَا يفيضُ بالغيظِ والغضبِ لهزيمتهمَا.. ولم يستطيعَا النومَ فِى تلكَ اللَّيْلَة ، بل جلسَا يخططَانِ لمكيدةٍ جديدةٍ ، ربمَا أنقذَا بهَا ماءَ وجْهَيْهِمَا أَمامَ

النجاشـــي وأمامَ قومهمَا، وَإذَا بفكـــرةٍ خبيثةٍ تخطرُ عَلى بالِ عمرو فيقولُ لِصَاحبه :

لأرجعنَّ للنجاشـــي غدًا، وَلأُخبرنَّهُ أنهم يزعمونَ أَنَّ عيسَى ابن مريمَ عبدٌ كبقيةِ العِبَاد.

وبالفعلِ عادَ المبعوثَان إلى النَّجَاشي، وقالَ له عمرو:

- أيها الملكُ إنهم ليقولُونَ فِى عيسَى قولاً عَظِيمًا..

نظرَ النجاشي بانزعَاجٍ إلى المبْعوثيْنِ، وقد اضطربَ رجالُ الكنيســةِ مِنْ حَوْله لما سَــمِعُوه، فطلبَ إليهم أَنْ يعُودُوا إليه بالمسلمينَ ليتحققَ بنفْسِه ممَّا يُقالُ عنهم.

ولما علمَ المســلمونَ بالمكيدةِ الجديدةِ اضطربُوا هُمْ أيضًا، ورجَفَت قلُوبُهم خوفًا، فإنْ هُم قَالُوا إنَّ عيسَى بنَ مريمَ هو عبدُ الله وَرَسُوله، غضبَ منهم الملكُ ورجالُ الكنيسةِ، وفازَتْ قريشٌ بِعَوْدتهم إلى مَكَّة.. وإنْ هُمْ لمْ يقُولُوا مَا ذُكِرَ فِى القرآنِ الكريمِ خرجُوا عَنْ دِينهم دِين الحقِّ والإسْلاَم.

ولمْ يطلْ تَشَــاورهم فِيمَا بينهم بلْ حُسِمَ الأمرُ فَوْرًا، وَصَدَحَ الجميــعُ بصوتٍ واحدٍ يقولُ: لَنْ نقــولَ إلاَّ الحقَّ ومَا جَاءَ فِى كتابِ الله .

ولمَّا وقفَ جعفر منْ جديدٍ بينَ يَدَيِ النجاشي وهو يَسْأَله:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۖ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾
وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ
هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

صدق الله العظيم

سورة مريم
من الآية
(٣٥ – ٣٦)

مَاذَا تقولُونَ فِى عيسى؟

ارتفعَ صوتُه قويًّا بقوةِ الحقِّ وهو يجيبُ :

نقولُ فيه ما جاءنَا به نبيُّنَا ﷺ : هو عبد الله ورسُوله، وَكَلمته أَلقاهَا إلى مريمَ ، وروحٌ منه.

فما كانَ منَ النجاشي إلاَّ أنْ رفعَ صَوْته وقالَ: إنَّ هذَا هو مَا قَاله المسيحُ عَنْ نفسِه، ثُمَّ وقفَ فِى مَكَانه وَقَال:

- اذهَبُوا فَأَنتم آمنونَ فِى أَرْضِي.. ومَنْ سَبَّكُمْ أو آذَاكُمْ فَعَليْه غُرْمُ مَا يَفْعَل.

ومَا لبثَ أن التفتَ نحوَ المبعوثَيْنِ سَاخِطًا ، وهو يُشِيرُ إليهمَا بنفُورٍ ويقولُ:

- رُدُّوا عليهمَا هداياهُمَا، فلا حَاجةَ لِى بهَا..

فَوَاللهِ مَا أخذَ اللهُ منِى الرشْوَةَ حين ردَّ علىَّ مُلكى، فآخذُ الرشْوَة فيه..!!

وأشرقَ وجهُ جعفر بزهْو النصرِ عَلى منْ عَادى الإسلامَ ، فقد وَفقه الله وألهمهُ ليقولَ مَا قَاله، وتطلَّعت العيونُ بإعجابٍ شديدٍ إليه، وقد اكتسبَ الثقةَ العاليةَ والمكانةَ الرفيعةَ بينَ صَحْبه وأقرانِه.

وهكذَا فَشلت خطةُ قريشٍ فِى استعادَةِ مُسْلمِي الحبشة،

وعَـاش جعفر مَعَ غيرِهِ منَ المسـلمينَ فِى أرضِ النجاشـى مُطْمئنينَ آمنينَ، لا يُعَكِّرُ صَفْوَهُم شىءٌ ولاَ يضطهدهُم أحدٌ.

واستمرَّ الأمرُ عَلى هَذَا عددًا منَ السنينَ رُزِق خلالهَا جعفر وأسماء بأولاَدهمَا الثلاثة: محمد، وعبد الله، وعوف.

لكنَّ الغربةَ، وفراقَ الأهـلِ والأحبابِ، والحنينِ إلى الديارِ والبعدِ عَن أَنْسَامِ الإسلامِ التى تعطرُ القلوبَ.. كلُّ هذَا وغيره كانَ ، إنْ لَـمْ يعكِّرْ صَفْـوَ الحياةِ فهو يمـلأُ النفسَ بالحزنِ والأَسى. وَمَا أكثرَ التلهفَ إلى سَمَاعِ أىِّ خبرٍ، أو تتبعِ أىِّ أثرٍ، لمسـافرٍ يحملُ معه أبناءَ الدَّعوة، وَمَدَى انتشـارهَا وانتصَار المسْلمين خاصَّة وأَنَّ غزوَاتٍ عِدَّة كما يقولُ الرواةُ، قدْ حَصَلت أثناءَ غِيَابهم هَذِه السنينَ، إضافةً إلى تحرّقِ هؤلاءِ الشُّبَّانُ منَ المسلمينَ إلى المشاركةِ فِى تلكَ الغزواتِ لعلَّ فيهَا إنْ لم تكنْ نشوةُ النصرِ فهِى الشهادةُ فِى سبيلِ الله.

وكما شـاءَ الله لهم بالهجرةِ فقد أَذِنَ لهم الآنَ بالعَوْدة، وَهَا هو الرسـولُ يُبَلغهم أَنْ يرجعُوا إلى دِيَارهم، فهلَّلُوا وَاسْتبشروا، وكادَ جعفر يطيرُ فرحًا فقد بلغَ شـوقه إلى رسولِ الله ﷺ حدًّا عظيمًا وَهَا قد مَنَّ الله عليه وَعَلى باقِي المسلمينَ بالعَوْدةِ ولمّ الشَّمْلِ منْ جَديد.

وخرجَ المسلمونَ منْ أرضِ الحبشةِ وجعفر فِى مُقدمتهم، والأملُ يملأُ صُدورهم ، والفرحةُ تغمرُ قُلوبَهم، ولم يَعد أحدٌ منهم - لاَ كَبيرهم ولاَ صَغيرهم - يحسبُ حِسابًا للتعبِ أو يَشْعر بمشاقِّ السَّفرِ فِى تلكَ الصحراءِ القَاسِيَة، ومَا هَمَّهم سِوَى العودةِ فإذَا بقَافلتهم تسيرُ سريعةً خفيفةً تقطعُ المسافاتِ والقفار ويظللهَا غمامٌ مِنَ الرحمةِ، وتحفزهَا لهفةُ اللقاءِ بمنْ فَارقُوهُم منذُ سنينَ فِى مكَّةَ.

ومَا أن بَلَغت قافلةُ المسلمينَ الديَارَ حتَّى أطلَّ وجهُ جعفر منْ بينِ الوُجُوه، وعيناهُ تبحثُ عَنْ حبيبٍ طالَ شوقُهُ إليه. وَمَا أنْ رَأى رسولَ الله حَتَّى ألقى بنفسِهِ نحوه يُعانقه غيرَ مُصدقٍ، وَدُموع الفرحِ تنهمرُ على خَدَّيه، وما لبثَ أنْ رفعَ يدَيْه يحمَدُ الله، ويشكُرُه أنْ ردَّهُ إلى حِضْنِ الدعوةِ المبَاركةِ، فقالَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام مرحبًا بعودةِ جعفر: «لاَ أدرى بِأَيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ بفتحِ خَيْبر أم بقدومِ جَعْفر».

وكانَ المسلمونَ آنذاك يحتفلونَ بنصرٍ له معَانٍ كَثيرةٍ وهو فَتح خيبر، فهوَ ليسَ مَعْركة فحسب فيهَا المنتصرُ والمنهزمُ ، لكنهَا فتحٌ منْ نوعٍ آخرَ هو إعلاءٌ للعقيدةِ الإسلاميةِ ، فوقَ الأباطيلِ والضلالاتِ ، التِى شَابت الديانةَ السَّمَاويةَ السابقةَ

أيِ اليهودية فحرفتها عَن مسارهَا الصَّحيح، وَخَلقت منها عداءً شـــديدًا لإخمادِ شُعلةِ الإسلام، وهو أمرٌ خطير فِى ذلكَ الحينِ لأنَّ الدعوةَ كانت لا تزالُ فِى بِدَاياتها.

وتوالت أخبـــارُ غزواتِ المســـلمينَ عَلى مســـامعِ جعفر وهو ينصـــتُ ويفكرُ، كيفَ أنَّ قَدَرَهُ أبعدهُ عن تلكَ المواقعِ العظيمةِ فِى بدرٍ وَأُحُد وغيرهمَا، وحتَّى عنْ فتح خَيبر فلم يشـــهدهُ بل شـــهدَ الاحتفالَ بنصْرِه، وتذكَّـــر رِفاقًا له وَإِخوةً فِى الدينِ فعلمَ أنهم قَدْ قَضَوْا نَحْبَهُم شُـــهَداء أبرارًا فِى تلكَ المعاركِ ليكُونوا أول شُهدَاء فِى الإسْلام .

وعَـــادَت عينَا جعفر تمتلئُ بالدموعِ ، ولكنهَا هَذِه المرة مُختلفة.. فهلْ هِى دموعُ الحسرةِ عَلى فراقِ مَنْ كَانُوا من الأهلِ والأصحابِ ؟! أم أنها دموعُ الفرحةِ بالشـــهادةِ ، أم أنه التوقُ الذِى اشْتعلَ فِى نفسِ جعفر لينضمَّ إلى قافلةِ هؤلاءِ الشهدَاء الأبرارِ؟

وظلَّ هاجسُ الجهادِ والشـــهادةِ يلازمُ جعفر طيلةَ الأيامِ التَّالية، فما مَضى يومٌ إلاَّ واســـتزادَ فيه من قوةِ الإيمان، ومنْ قوةِ الســـيفِ الذِى سيرتفعُ عَاليًا باسمِ الحقِّ فِى وجْهِ أعداءِ الإسْلام.

وجـــاءَ ذلكَ اليومُ العظيمُ الـــذِى - لطالما- حَلُم به جعفر.. إنهَا غزوةُ (مُؤْته) إحدَى وأكبرُ المعارك التِى خاضهَا المسلمونَ وأُولى حُروبهـــم معَ إمبراطوريةِ الروم، تلـــكَ الإمبراطورية الأقوى عَتَادًا

والأَكْثر جيوشًا.

لقدْ شَعَر الرومُ بالخطرِ منَ اتساعِ رُقعة دِين الإسلام ، لاَسِيَّمَا وأنهم يبسطونَ هَيْمنتهم عَلى بلادِ الشام ، وهِى الأقربُ جُغرافيًّا إلى حدودِ انتشارِ هذَا الدينِ الجديدِ ، ممَّا يزيدُ الأُمورَ سُوءًا بالنسبةِ لهم، فَأَخذت مُنَاوَشاتهم تقتربُ من حدودِ الجزيرةِ العربيةِ بهدفِ إرهابِ المسلمينَ والتعدِّى عَليهم.

وَتصدَّى المسلمونَ لهم وقد أدركَ الرسولُ ﷺ جيدًا أبعادَ مَا يهدفُ إليه الرومُ، فقرَّرَ المواجهةَ مَعَهم.

وتوجَّهَ جعفر إلى رسولِ الله ﷺ يطلبُ إليه – مُتوسلاً – أنْ يُوَليه مَوقعًا فِى تلكَ الغزوةِ وَشِيكة الوُقُوع، فلم يخذُلْهُ الرسولُ ﷺ وولاَّه إِمَارةَ الجيشِ مِنْ بعْدِ زَيدِ بنِ حَارثةَ الذِى هو الأميرُ الأولُ للجيشِ. وعَلاَ صوتُ جعفر يشكرُ الله عندمَا سمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «عليكُم زيد بنُ حَارثة، فإنْ أُصيبَ زيدٌ فجعفر بنُ أبِى طالبٍ، فإنْ أُصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحة». الحمدُ لله الذِى استجابَ لدعاءِ قَلْبه، بأنْ يَهَبَ له شرفَ الجهادِ فِى سبيلِ رَفْع رَايةِ الإسْلاَم.

وفى جمادى الأولى منَ العامِ الثَّامنِ للهجرةِ دَقَّتْ طبولُ الحربِ، واحتشدَت جيوشُ الروم بزعَامةِ (هِرَقل) فِى أرضِ المشارفِ منْ بلادِ الشامِ ، بينمَا نزلَ جيشُ المسلمينَ فِى بلدة اسمها (مُؤْته).

وَجَاءت اللحظةُ الحاسمةُ والتقى الجيشَان ، نَفَرٌ قليلٌ منَ المسلمينَ ، مُقَابل مائتِى ألف جندىٍ من الروم بكاملِ عَتَادهم وأسْلحتهم وَقُوَّتهم.

وقفَ جعفر مَعَ زيدٍ وعبد الله وهم ينظرونَ إلى هَوْل مَا سيكونُ مـــنْ أمرِ هذِه المعركَة، وإذَا بنُفُوســـهم ونفوس بَاقى المســـلمينَ تشتعلُ بإيمانٍ لاَ حدودَ له.. وإذَا بالقوة يسكبهَا الله فِى أوْصَالهم فيرتفعُ الصوتُ مُناديًا «الله أكبر».. وينطلقُ زيد بن حارثة يحملُ الرايةَ ومِنْ وَرَائه جعفر وعبد الله والمجاهدونَ فِى سَبيلِ الله.

انطلقْ إذَنْ يا جعفر.. أيُّهَا الفارسُ الشُّـــجَاع.. انطلقْ بقوةِ مَا تحملُـــه فِى قلبكَ منْ نُورٍ وإيمَان.. إنه اليومُ الذِى طالَ شـــوقُكَ إليه.. إنه حلْمُك بالنصرِ أولاً والشـــهادةِ فِى سَبيله.. قَاتلْ كَما لم يعرفْ أحدٌ كيفَ يكُونُ القتال.. وأظْهر بَسَـــالتَكَ كَما لم يَرَ الرومُ مِنْ قبل.

وفِى غمرةِ المعركةِ ، وجعفر يصدُّ الضرباتِ التِى تَأْتيه منْ كلِّ اتجاهٍ، لا ينسى أنْ تتعلَّقَ عينَاه بالرايةِ فِى يدِ زيد بن حارثة.

وفجأةً وقد اخْتلطَت مَشَـــاهدُ المعركةِ وصُورها مع صيحاتِ الجهادِ، تتهـــاوَى الرايـــةُ ولا تكادُ تقعُ حتَّى ترتَفعَ بهَـــا عَاليًا يَدُ جَعفر.. لقد فَارقتِ الروحُ جَسَـــدَ زيدٍ فقدْ فازَ بالشـــهادةِ.. تُرَى هَلْ هو دورُك الآنَ يَا جَعفر؟.. هل كان الرســـول يعلمُ أنَّكَ سَتَقْضِى منْ بعْدِ زيد؟!! لِتُقَاتلْ أكثرَ يَا جعفر والرَّاية مَرْفُوعة بيدكَ.

واقتحمَ جَعفر بَاقى صفوفَ الـرُّوم ، فَمَا أفلتَ أحدٌ مِنهم منْ ضَربةِ سـيفِه ، حتى بَدَا وَسطهم كَأسدٍ جَسُورٍ يهابهُ الجميعُ ولا يهابُ هو أحدًا، ولفتَ أنظارَ الروم ببراعَته فِى القتالِ، وسـرعةِ حَركته، وجُرْأته وإقْدَامه ، وَكأنه يَسْـعى إلى الموتِ سَعْيًا، فما كانَ مـنْ نظراتِ الغدرِ مِنْ حَوْلـه ، إلاَّ أنْ تلاَقت فأَحَاطت به شِرْذِمَةٌ منْ فُرسَـانِ الرُّوم وحَاصرته. وراحَ يضربُ بسَيْفه يمينًا وشـمالاً، ولكنَّ سيفَ الغدرِ أيضا كان أسْرعَ فضربَ يمينَهُ التِى تحملُ الرايةَ فتلقاهَا بشمَاله، وضُربت شمالُهُ أيضًا فتلقى الرّايةَ بِصَدْره واحْتضنها بِعَضُدَيْه.. ولم يكنْ ليشْـعُرَ بِألمه أو بدِمَائه النّازفَة ، بلْ كانَ يخْشَـى أنْ تلامسَ رايةُ رسولِ الله ﷺ الأرضَ أو الترابَ، وراحَ يناضلُ بِكلِّ قطرةٍ منْ رُوحِه ومَا بَقَى لديْه منْ قُوةٍ حتى يَظلَّ مُحْتضنًا للرايةِ ، وهو يدعُو الله ألاَّ يخذُلَه فَلاَ تَقَع منه أو تُفَارق روحُهُ الجسدَ قبلَ أنْ تتسلمهَا منه يَدُ عبدُ الله بنُ رَوَاحة ، أو أىٍّ منَ المسلمينَ المجَاهِدِينَ.

ومَـا هِى إلاَّ لحظاتٌ حَتَّى كانَ عبدُ الله بـن رواحة يندفعُ منْ بينِ الجمـوعِ ، فوقَ جَوَادِهِ كالبرقِ باتجـاهِ جعفر، فانتزعَ منه الرايةَ وتابعَ قِتَاله.

فى تلكَ اللحظةِ تهاوَى الجسـدُ الطاهرُ إلى الأرضِ وقدْ غَطَّته الدماءُ فَغَابت عَن سمْعِه كلُّ الأصوَاتِ مِنْ حَوْله، واختفتْ مِنْ أمامَ

عَينيْه كلَّ مَشَـاهدِ القِتَال، وانفرجَ الثَّغْرُ وتهلَّل الوجهُ بابتسـامةِ رِضًـا عَميق . إنهَا اسـتراحةُ المحَارب الأخيـرة.. وخرجَ صوتُه ضَعيفًا ينطقُ بشهادةِ أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

وهَكذَا تحقَّقت الشهادةُ لجعفر، وجَسَدُه يحملُ بضعًا وتسعينَ ضربةَ سيفٍ وطعنةَ رُمح .

إنَّهُ رجلٌ عظيمٌ منْ رجَال الإسلاَم، بكاه الرسولُ وَقَالَ ﷺ :

«لقدْ رأيتُهُ فِي الجنةِ لَهُ جناحَانِ مُضَرَّجَانِ بالدمَاءِ مَصْبُوغُ القَوَادِم».

لكنهَـا أجنحةُ النورِ التِي ارتفعَت به إلى جنانِ الخلدِ ليسْـعَى فِى ملكوتِ الله رَاضيًا مَرْضيًّا، فقدْ عَادَت النفسُ المطمئنةُ إلى رَبِّهَا:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

سورة الفجر من الآية (٢٧ – ٣٠)

صدق الله العظيم

وَرَصَّعَ التاريخُ الإسْلاَمى صفحاتَهُ باسم جعفر بن أبى طالب مُضَافًا إليـهِ صِفَةَ الضيَـاء والنورِ وَهى جعفر الطَّيَّار، مُذكرًا المسـلمينَ بتلكَ المأثرةِ العظيمةِ، وبتلكَ الروحِ الطَّاهِرَةِ الخَالِدَة.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

الصحابة

يسعد دار المعارف أن تقدم للشباب والناشئة ، هذه المجموعة الشائقة عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الذين قال عنهم : « أصحابى كالنجوم .. بأيهم اقتديتم .. اهتديتم » .

مجموعة تحث الشباب والناشئة على القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة والقدوة الحسنة .

صدر منها :

١ - أبو عبيدة بن الجراح .
٢ - أبو حذيفة بن عتبة .
٣ - الزبير بن العوام .
٤ - زيد بن حارثة .
٥ - عبد الله بن رواحة .
٦ - عبد الله بن مسعود .
٧ - أبو ذر الغفارى .
٨ - عثمان بن عفان .
٩ - البراء بن مالك .
١٠ - سعيد بن زيد .
١١ - جعفر بن أبى طالب .

دار المعارف

٢٣٥١٠٠/٠١

obeikandl.com